طبيعة النفس البشرية

محمد سعد زغلول سالم

الخميس ١١ سبتمبر ١٩٦٩

لطالما إستَهْوَتنى النفسُ البشرية بما إنطوَت عليه من حقائق أودَعَها فيها الله وبما طُبِعَت عليه من غموض لا أعرف مصدرَه وبما يكتنفها من أسرار تنبع مثلما أظُنُّ من جهلنا بطبيعتها ومن عدم قدرة العقل البشَرى على فهم هذه الطبيعة ، فإنَّ جهْلَنا بطبيعة أنفسنا رغمَ كلِّ ما نعرفه عنها يكمنُ كما أعتقد وراءَ كلِّ مشاكل البشر أفراداً أو جماعات سواءَ أكانت هذه المشاكل أمراضا نفسية أو جَسَدية أو إختلالاتٍ إجتماعية أو مظاهرَ شاذة للفكر أو السلوك نراها فى الأفراد وفى المجتمعات بل وفى الجنس البشرى على إمتداد تاريخه ، بل إنَّ هذا الجهلَ بطبيعتنا يتبَّدى أكثرَ ما يتبَّدى فى كلِّ ما يفعله الإنسان بغير أن يجدَ له تفسيراً ، فها أنا ذا الآنَ وأنا أكتب هذه السطور لا أعرف بِمَ أكتبها ولا كيفَ أكتبها ولا أعرف حتى مصدرَ ما تحويه من آراءٍ وأفكار !، أهىَ روحى التى أكتبُ بها ؟ أم عقلى ؟ أم جانب آخر بداخلى لا أعرف له وصفاً وإن كنتُ أستشعِرُ وجودَه وتأثيرَه على كلِّ أفكارى ومشاعرى التى تنطقُ بها هذه الكلمات ؟. لقد كنتُ فيما مَضَى أُسَمِى هذا الجانبَ بالوعْى وأعتبرَه وسيلة الإدراك للروح والعقل معاً ولكنْ بعدَ إدراكى لإنفصال الروح عن العقل وتمايُزِها عنه فى كلِّ شىء أصبحَ علىَّ أن أجدَ وصفاً صحيحا لهذا الجانب من الإدراك والتعبير،. وقد كانَ ذلك ومازال قيْدَ البحث والتفكير والتحليل وهو أمرُ من الصعوبة بمكان ، فتَمايُز الروح عن العقل أمر واقِع .. فالروحُ من الله بينما العقل من مخلوقات الله .. والروح منحَها الله للإنسان لهدايته للحقيقة والعودة إليها أمَّا العقل فقد منحَه الله للإنسان لمعرفة الخطأ والصواب وللتمييز بين الخَير والشر حتى يمكنه عمارة الأرض والكون ليكونَ ذلك هو معيار الحساب العادل والجَزاء بالثواب أو العقاب فى النهاية الأخيرة .. والروح تعودُ إلى الله بعدَ إنتهاء الأجل بغير حساب أو عقاب لأنها من الله للهداية بغير إختيار أمَّا العقل فيبْقى بعدَ الموت فى مكْمَنِه حيث لا يعرف أحد إلى أن يُبْعَث ويحينُ وقتُ حسابه على ما إختاره لنفسِه من هِداية أو ضلال ،. وهذا التمايُز بين الروح والعقل وإن كان يبدو واضحا ومُحَدَّدا إلاَّ إنه يزيدُ غموضَ كلِّ ما يتعلق بالوَعْى والإدراك ، فإذا كانت الروح هى الجانب الإلهى فى الإنسان فيجب أن يكونَ إدراكُها شامِلا لكلِّ جوانب الإنسان الأخرى المخلوقة .. ولكننا فى كلِّ ما يخُصُّ أمورَ حياتنا ــ بإستثناء ما يخُصُّ الإيمانَ بالله ــ لا ندرك بأرواحنا بل بعقولنا ، فكيف نُدْرِك أرواحَنا وعقولَنا معا ؟ أهناك جانب آخر فى طبيعتنا هو المسؤول عن ذلك ؟ أَهُوَ الوعْى ؟ وهل الوعْى هو وسيلة الروح للإدراك أم إنه أحد صفات العقل ؟ وهل يستطيع الوعْىُ إدراكَ الروح ؟ وماذا عن النفس ؟ أتكونُ هى الروح والعقل معاً ؟ أم إنها تشمل الحواسْ أيضاً ؟ وماذا عن الجسد ؟ أهوَ فقط جزءُ من النفس أم هو وعاءُ لها وللحواس وللروح وللعقل معاً ؟ وإذا كانت أرواحُنا عائدة إلى الله بعد إنتهاء الأجَل وإذا كانت أجسادُنا وحواسُّنا سَتُعَذَّب وتُعاقَب بالنار وتُثاب بنعيم الجنة الحِّسى فَبِمَ سَتُعَذَّب عقولُنا ؟ بالندم ؟ وبِمَ سَتُثاب ؟ بالرضا ؟ وأيضاً .. بِمَ سَتُعَذَّب نفوسُنا ؟ بالفناء ؟ وبِمَ سَتُجَازَى ؟ بالخلود ؟ وماذا لو تحَجَّجَ العقلُ ــ مدفوعاً بوساوس الشيطان ــ بأنه لم

يُخَيَّر فى الخلق أو الوجود أو حَمْل الأمانة أو فى قبول الثواب والعقاب ! أم أنَّ هذا التخييرَ قد حدثَ بمشيئةٍ إلهية لا رادَّ لها قبلَ البدء فى عالم الغيب ولذا لا تذكُرُه عقولُنا ؟. إننى أستطيع الإستمرارَ فى خَوْض هذا الجَدَل الفكرى الى ما لا نهاية وبغير طائل وبغير أن أعرف أيضاً معَ مَنْ أتحاوَر أو منْ أينَ تنبعُ ما تُعَبِّر عنه كلماتى هذه من أفكار وتصوُّرات ! من روحى ؟ أم من عقلى ؟ أم من نفسى ؟ أم من وَعْيى ؟ أم من طبيعتى التى تتشكَّل منْ كلِّ هؤلاء !. فما أغربَ طبيعة النفس البشرية وما أعقدَها وما أبعَدَنا عن فهْمها رغمَ كلِّ ما نعرفه عنها من حقائق وأوهام !.

